

تسوا «د. نبيل حنفي» والعاملين المبدعين

هنا

مقال عن مصري أخلص ببدأ وفي صمت وزهد لعمل جليل نادر. وكان من المفترض أن يطالع المقال قراء جريدة "الأهرام" قبل نحو ست سنوات. لكنه تعرض للوادر والنسيان. وهذا لأن سلطة ما في المؤسسة الصحفية أو خارجها قررت استبعاد عدد من الكتاب من صفحات الرأي. واختلافها وبالتمام والكمال لأهل "نعم.. كله تمام يا أهدم"، ومعهم من يتجنون قول كلمة حق وصدق مع الالتزام بقوانين وآداب النشر وعلى أي حال، فعندما سيعود المختصون في تاريخ الصحافة المصرية لدراسة تلك الفترة التالية لتيران وصنابير واقترام نقابة الصحفيين المصريين فلا بد أن يلاحظوا حجم وإيقاع "الانقلاب" الذي تم على الهوامش المحدودة بالأصل من حرية التعبير والرأي بمقالات الصحافة المصرية "قومية" و"حزبية" و"خاصة".

ولأسف كان من ضحايا هذا الانقلاب "د. الأهرام" مقال "مؤرخ جديد للأغنية المصرية" عن الدكتور "نبيل حنفي إبراهيم"، و الذي كتبت في نهاية ٢٠١٦. وعلى أمل الدفع به للنشر لاحقاً. للأسف كان هو أيضا مع أنه مقال لا يتصل بالتطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الجارية أحد ضحايا هذه الانقلاب المجسد والموقر على صفحات صحف القاهرة ومواقعها الإلكترونية. وكنت قد كتبت هذا المقال بخلفيات وخبرات محرر عمل بصفحات "الثقافة" بالجزيرة منذ يناير ٢٠٠٧، وبالأسفل مهتم بالثقافة والفنون منذ سنوات الصبا.

الآن فقط وبعد كل هذه السنوات وبحلول ٥ مايو هذا العام ٢٠٢٢ تحل الذكرى السنوية الثانية لوفاة مؤرخ الأغنية الدكتور "نبيل حنفي". وهي وفاة تأخر اكتشافها لها لعاملين إلا القليل من الأيام. وأجدني اليوم. ومن أجل تلبية نداء الضمير وللتنخف من مقال في وجداني ون أقول على كاهلي مطالبا بنشر المقال وبذات الكلمات التي كتبتها حينها. ولعل في هكذا نشر بعض وعاء واجب لقيم يجب ألا تغيب تماما عن هذا البلد وناسه الأحرار والطيبين المخلصين، ومهما تقلت بهم وبنا الأحوال وعصف الرياح. وأيضا وفاة للرجل الذي تعرّف عليه تقريبا في غضون العام ٢٠١٤، وبعد قرأتها لكتابه المهم "هكذا غنى المصريون: الأغاني المصرية في المناسبات الدينية والسياسية"، والذي عثرت عليه حينها ضمن الإصدارات الجديدة للهيئة العامة للكتاب. وقد دفعني ثراء هذا الكتاب ومنهجه العلمي إلى كتابة عرض ضاف عنه، جرى نشره في مساحة معتبرة ليقبل بأهميته على صفحات مجلة "أخبار الفنون"، والتي كانت تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت وقيل أن تتوقف.

آخر مكالمة هاتفية بيننا ما زلت أتذكرها جيدا عندما شرهني بالمبادرة بها في غضون عام ٢٠٢٠. ظهر اسمه على شاشته الهاتف المحمول، فأسرعت إلى مغادرة مكتبة كلية إعلام جامعة القاهرة التي كنت أطلع فيها بعض ما أبحث عنه عن أحوال الصحافة ونقائنها في مصر. خرجت مسرعا إلى خارج باب قاعة المكتبة لتتعاقد. ولليوم يطلع في ذاكرتي ووجداني صوته الهادئ كما اعتدته. وزاد من خفوت الصوت يومها رعشة تسلكت عبر الأثير. وهو في منزله بشبين الكوم - حيث كان يقيم ويأشر تدريسه بعد المعاش بكليته الهندسة. وتلخص فيها الرعشة الحية عند ليوم مخاوفة عندما اخذ يحدثني عن قلته من استمراء وباء "كورونا" وتعاظم مخاوفة المميتة. وأبلغني حينها بأنه انقطع للعمل الأولى في حياته عن شراء الصحف والمجلات الورقية خشية انتقال العدوى. وهو من مواليد ١٩٤٩ والمغرب منذ الصبا بالصحافة والصحف، وكذا الأرشيفات حيثما كانت، وقطع من أجلها مئات الكليو مترات.

كانت لغنائنا قد انقطعت قبل الوفاء بأشهر معدودة، وكان الأخير منها في نقابة الصحفيين بشارع عبد الخالق ثروت بعدما كنت عائدًا للتو من زيارة إلى تونس، وأهديته كتابا عن "المدرسة الرشيدية" في الموسيقى والغناء والتي تعود هناك إلى عام ١٩٣٤ من القرن العشرين ومازالت مؤسسة ثقافية معطاءة لليوم هناك. وتفضل هو مشكورا فأهداني آخر ما صدر له من كتب دارت بها مطابع دور النشر بالقاهرة، وكان من بينها كتاب "فريد الأطرش ومجد الفيلم الغنائي"، وكرر مشكورا دعوتي لزيارته في "شبين الكوم". وهو ما لم يحدث للأسف وسأظل أندم عليه.

وعدت في لقائنا هذا للاستفهام منه عن حال أرشيفات تاريخ الأغنية المصرية متأملا من جديد كل هذا الاهتمام والآداب وتضحيات أهل الهواية.. وكل هذا الإيمان برسائله الثقافية الفنية، وحرصه النادر العطره وميراثه الثقافي المقدر، ومتأسفا كون الوفاء مصر الحديثة والمعاصرة. وأيضا معاناته وجهاده من أجل استكمال رسالته بالنشر في الصحافة ودور الكتب. وهذا مع اعناده الشديد بالنفس وقيمة مايفعل، ونوره من الشللية والنفاق وتبادل المصالح والمنافع بين محترفي الأضواء والشهرة والباحثين عن المال وغيره من مغامز ومزاييا وسلطة.

لم أكن أعلم بأنه اللقاء الأخير، وبأنها المحادثة الهاتفية التي لايعدها لاصوت "ولا حس ولا خير" ولا دفع عبر المسافات الطويلة والأماكن البعيدة. ومعدرة لأنني لم أعرف بوفاتك متأثرا بعضاضغات العدوى بالوباء اللعين إلا منذ أيام فقط.

فمع بداية رمضان هذا العام، عدت للاتصال على هاتفه المحمول. وكثيرها من اتصالات سابقة على مدى نحو العامين في العديد من المناسبات والأعياد جاءت الرسالة المحيرة: "خارج الخدمة". لكنني في هذه المرة كنت أكثر إلحاحا وعنادا. سألت أناسا قابلتهم عن معارف لهم يعملون في جامعة شبين الكوم، وعلى أمل حل لغز الرسالة المكررة المحيرة، والتي تحولت إلى "إجابة دائمة".

و لم يكن يعطر على الببال رحيل مثقف معطاء



مؤرخ جديد للأغنية المصرية

يقترص على تلك الأغنية الرسمية التي تداع في الراديو أو التلفزيون وفي الحفلات العامة على المسارح، بل أن ينطلق إلى دراسة أغنيات الكاسيت الشعبية والأغنيات السياسية المطاردة والمحظورة على مدى تاريخ الغناء في هذا البلد. وفي كل مرة يعاجج بصعوبة التوثيق.

لكنني لا أملك إلا أن ألع واستمر في الإلحاح. فتاريخ الأغنية المصرية. وهو جزء من تاريخنا الوطني ومكون أساسي لوجدان المصريين. لا يكتمل إلا بإضاءة هذه المناطق المظلمة المنسية. وحتى لو راج الانطباع بإحطاط الذوق الفني في جانب لا بأس به من أغاني الكاسيت والفيديو كليب، فإنها في النهاية تظل. شئنا أم أبينا. ملمحا من ملامح تطور ذائقة المصريين.

وحقيقة نحن نتحاج إلى تاريخ للأغنية المصرية أبعاد من تلك الأغاني محل الاعتراف الرسمي في الإذاعة والتلفزيون والسينما، أو من النقاد الذين يكتبون في الصحف، ويظهرون على موجات الإذاعات وشاشات التلفزيونات. وأنا ما زلت على أمل في أن يتصدى الدكتور "نبيل حنفي" بخبرته ودأبه ليكشف لنا عن أوجه أخرى من الصورة.

ك.ي

جهد في التاريخ للأغنية المصرية دينية كانت أو وطنية أو عاطفية أو غيرها بالتوثيق والتمحيص والتوصل إلى نتائج غنية بالاستنتاج والمقارنة والتحلي بالموضوعية. ويتجلى هذا في كتابه "العصر الذهبي للغناء المصري" الصادر صيف عام ٢٠١٦، ويكفي هذا الكتاب فائدة للأجيال الشابة وعشاق الموسيقى والغناء و محبي الوطن ما ورد في فصله الأول عن الشيد الوطني لبلادنا تألينا وتلحيننا وغناء منذ عشرينيات القرن العشرين. وقد تناولت فصول الكتاب لتجيب. وبذات المنهج التوثيقي العلمي. على تساؤلات تدور في أذهاننا عن علاقة كبار المطربين وأغانيتهم بالزعماء والحكام في تاريخ مصر، وكذا عن التوظيف السياسي للغناء والبرامج الغنائية، وعن حقيقة الإذاعات الأهلية التي عرفتها مصر قبل إطلاق الإذاعة الحكومية في مايو عام ١٩٢٤. فضلا عن توثيق السنوات الأولى لإذاعة "صوت العرب" والبرنامج الشهير "أصوات المدينة". وبلغت النظر في هذا التوثيق الجميل هذا الالتفات إلى التلقى والملتقى واقتصاديات الأغنية. فهذا الكتاب حافل بمعلومات وفيرة عن أسعار تذاكر حفلات الغناء لكبار المطربين على مدى خمسين عاما من حياة المصريين.

ولقد تحدثت إلى الدكتور نبيل حنفي غير مرة عن الحاجة إلى أن يمتد جهده المقدر هذا إلى التاريخ للأغنية المصرية اعتبارا من عقد السبعينيات وما بعده. وكذا ألا

بدار الكتب. ولعل من أهم مصادره "مجلة الإذاعة المصرية" والتي اعتمد عليها على نحو لافت في التوثيق والتاريخ لما يطلق عليه العصر الذهبي للأغنية المصرية بين العشرينيات والسبعينيات من القرن الماضي. ولقد روى لي بأسف وأسى عما أصاب تلك الأرشيفات العامة التي تحوى التاريخ الوطني لبلدنا من تدهور وضياح وتلف. وضرب لي غير مرة أمثلة من صفحات وأعداد صحف ومجلات أصبحت مفقودة، أو مهترئة أو ممزقة يطويها النسيان والإهمال بعدما كان قد عاد إليها قبل سنوات. فلما احتاج مراجعتها مجددا لتدقيق أو استكمال معلومة أو نص اكتشف هول هذه الكارثة الثقافية. والأمر على هذا المنوال يفتح الباب لطلب جرد أرشيفنا الوطني في دار الكتب، واتخاذ ما أمكن، وحصر ما أصابه التلف والإهمال وربما السرقات، والعمل على استكمال ما نقص من جديد.

ما يميز به ما أخاله مؤرخا معاصرا معتبرا لتراثنا الغنائي هو أيضا الأدب على جمع التسجيلات الصوتية القديمة. وهذا منذ أن أدار أول جهاز تسجيل اقتناه في مطلع السبعينيات. والأهم هو أن مؤرخنا عكث ليعود ببدأ كذلك على تصوير وتدوين كنوز من المعلومات المستمدة من الأرشيفات الورقية والفيلمية. وربما لأنه بالأصل أكاديمي اعتمد على المنهج العلمي والدقة ومن موقع عمله أستاذًا بهندسة شبين الكوم. ولذا امتاز

أسعدني الحظ بالتعرف على الدكتور نبيل حنفي محمود لأنه قد يعد في هذه السنوات من أبرز مؤرخي الأغنية المصرية. في البداية قرأت له ومنذ نحو العامين كتابا صدر بعنوان "هكذا غنى المصريون"، وشدني إلى اقتناء الكتاب عنوانه المثير للأسئلة، وكذا صورة "أم كلثوم" في حالة من حالات تجليها الغنائي على المسرح أمام جمهورها، وكنت قرأت لعلم من أعلام التاريخ الموسيقي من جيل سابق رحل عنا عام ١٩٩٨، وهو "كمال النجمي". رحمه الله. صاحب كتب تراث الغناء المصري والغناء العربي، والأخير صدر عام ١٩٦٦.

كما قرأت في صحف ومجلات، واستمعت عبر التلفزيون للمؤرخ الشعبي لفن السينما والمطربين والممثلين صاحب الأسلوب الكماهي "عبد الله أحمد عبد الله" الشهير بـ "ميكى ماوس". وقد رحل أيضا عن عالمنا. رحمه الله. في عام ١٩٩٨. وقد يكون الدكتور "نبيل" لم يبلغ بعد شهرة "النجمي" أو "ميكى ماوس". وبالقطع ولا صوت/إبي الفرج الأصفهاني" صاحب "الأغاني" الذي أفنه في القرن العاشر الميلادي، والذي يؤرخ في زمن الدولة العباسية لفنون الغناء والموسيقي عند العرب، لكن هذا المؤرخ الجديد للأغنية المصرية يتميز عن سبقوه باعتائه البالغ بتوثيق ما يكتب، وبالوصوص لسنوات بل عقود أرشيفات الصحف والمجلات والمطبوعات

لم يكمل رسالته، وبعدما علقت وغيري عليه الأمال في تأريخ علمي وموقر وموضوعي للغناء والأغاني في بلاد. تاريخ أمثت في أن يتجاوز "فقه الحكايات والنميمة" والأهواء الشخصية والمزاجية والشللية. ولذا وبعد أيام من بحث بلا نتائج تقيد بأن الرجل بيننا، راجعت شبكة "الإنترنت". وفاجأتني خبر وفاته في ٥ مايو ٢٠٢١ بين سطور مقالين أو ثلاثة عنه وفي تأبينه. وكان من بينها مقال بعنوان "حارس الذاكرة.. نبيل حنفي محمود.. أن يجمع الناس على محبة أحد"، والمشتور بتاريخ ١٤ مايو ٢٠٢١ في "الأهرام" للصدوق والزميل الأستاذ "سعد القرش" رئيس تحرير مجلة وكتاب "الهلال" سابقا، والذي تعامل عن قرب وبالنشر مع الدكتور "نبيل حنفي" رحمه الله.

وسارعت بالاتصال "بسعد"، وكانني أبحث عنده عن تذكيب لما قرأت عن الوفاء، وتكرم مشكورا بإعطائي أرقام الهاتف المحمول لنجله الأستاذ "حسن". فتحدثت معه على الفور عن والده مستعيدا ذكراه العطره وميراثه الثقافي المقدر، ومتأسفا كون الوفاء وقدر الله منع عنا وعن الوطن استكمال ما كنا ننظر منه.

وبحلول الذكرى السنوية الثانية ومع نشر هذا المقال الذي تأخر لنحو ستة أعوام، عدت للاتصال بالابن العزيز. وأبلغني بأن والده الراحل ترك خلفه كتابين جاهزين للنشر هما: "محمود حسن إسماعيل شاعرا غنائيا" و"أتمة التصوف"، والكتاب الأخير تجميع لمقالات نشرها في حياته.

رحمه الله الدكتور "نبيل حنفي" مثقفا ومؤرخا محترما، سنظل نفتقد. وأتمنى ألا نساء وأمثاله من العاملين المبدعين في صمت وزهد من أجل الثقافة وللمصريين ومصر.

بقلم:

كارم يحيى



سيرة ذاتية

د. نبيل حنفي محمود المرواني (1949-2021م)

- حاصل على بكالوريوس الهندسة (بتقدير جيد جدا) من المعهد العالي الصناعي بشبين الكوم، محققا المركز الأول بقسم هندسة القوى الميكانيكية في عام ١٩٧٤م.
- حصل على أول درجة لدكتوراه الفلسفة في الهندسة بجامعة المنوفية، أستاذ متفرغ بكلية الهندسة جامعة المنوفية. ونشر أكثر من ٥٠ مقالة علمية باللغة الإنجليزية في مجلات علمية عالمية ومحلية وفي مؤتمرات علمية عالمية ومحلية.
- اهتم بالأدب - وبالرغم من دراسته وعمله - منذ صباه وحتى الآن.
- بدأ الكتابة متخذاً لأعماله صيغتي المقالة الأدبية والعلمية منذ عام ١٩٩٤م.
- نشر عددا كبيرا من المقالات والدراسات في كثير من الدوريات منها: «الهلال» - «الكتب وجهات نظر» - «أحوال مصرية» - «
- «المجلة» - «الفنون» - «أكتوبر» - «أرييف» - «آفاق سياسية»، وفي صحيفتي: «أخبار الأدب» و «القاهرة» - «مجلة التصوف الإسلامي».
- نشر ثمانية من الكتب هي: ١ - «معارك فنية»: عن دار الهلال بالقاهرة في عام ٢٠٠٧م. ٢ - «من أجل ثقافة علمية»: عن دار الهلال بالقاهرة في عام ٢٠١٠م. ٣ - «نجوم العصر الذهبي لدولة التلاوة»: عن دار أخبار اليوم بالقاهرة في عام ٢٠١١م. ٤ - «حكايات أسرة أرمينية»: عن الهيئة العامة لتقصير الثقافة بالقاهرة في عام ٢٠١٢م. ٥ - «الغناء المصري... أصوات وقضايا»: عن دار الهلال في يناير ٢٠١٤م. ٦ - «مصر ومثالث التلوث»: عن الهيئة العامة لتقصير الثقافة في إبريل ٢٠١٤م. ٧ - «هكذا غنى المصريون»: عن الهيئة العامة للكتاب في نوفمبر ٢٠١٤م. ٨ - «فريد الأطرش ومجد الفيلم الغنائي»: عن الهيئة العامة لتقصير الثقافة بالقاهرة في فبراير ٢٠١٦م.

